لبنان.. صورة المستقبل العربي

لستة قرون خلت. كتب ابن خلدون: «ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة والسبب في ذلك اختلاف الآراء والاهواء وان وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمانع دونها فيكثر الانتفاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت». وهو يضيف الى هذا مثلا عكسيا قائلا: «ان ملك مصر في غاية الدعة والرسوخ لقلة الخوارج واهل العصائب. انما هو سلطان ورعية». ليس لبنان مصر طبعا، لا في عصر ابن خلدون ولا في ايامنا هذه. ففي لبنان بالفعل القبائل كثيرة، والعصائب اكثر. الآراء كثيرة والاهواء اكثر. الانتفاض على الدولة مسلك يومي والخروج عليها من صنف البطولات والانجازات العظمى. فكيف يمكن لها ان تستحكم وتستقر واين من ممانعة اللبنانيين العمومية دعة اهل مصر ورسوخ دولتهم؟

وهكذ استقر رأي ابن خلدون والرأي العام من ورائه: ان «الدولة في لبنان» تعبير متناقض في ذاته. فالدولة غريبة عن لبنان، ولبنان غير قادر على ان يحتضن دولة. ولكن هذا الرأي له ايضا حدوده. وهو بدوره، على اتساع قبوله، قابل للنقاش. ففي لبنان، على رغم كل شيء هيكل دولة. لننظر اليه مجددا.

فضحت الحرب طبعا، ولحد قاس، هشاشة بناء الدولة في المجتمع. وقد تكون اوضح علامة على ذلك استمرار الدولة ذاتها على رغم كل شيء، لا بسبب قوة في بنيتها بل لاسباب تدل على ضعفها. استمرت الدولة اللبنانية ككيان دولي لان النظام الدولي الراهن لا يحب القضاء على الكيانات القائمة، من خلال التقسيم او التقاسم، الضم او الوحدة. النظام الدولي الراهن، لا سيما في المناطق الشديدة الحساسية - كالشرق الاوسط - يدافع عن الكيانات القائمة لأن اعادة النظر بها قد تؤدي الى اعادة رسم اكثر من خريطة والى حروب طاحنة وهو بغنى عنها، حاليا على الاقل.

لذلك يبقى الشكل الخارجي للدولة قائما بفعل دعم القوى الاقليمية والعالمية لهذا الشكل، واعترافا به، ايا يكن مضمونه الفعلي، وسيطرته الواقعية، ودوره الحقيقي في المجتمع، فالقانون، والقانون الدولي بالذات، يكره الانقطاعات، وهو مستعد لكل انواع الفذلكات السطحية للابقاء على الاشكال الخارجية. والدولة اللبنانية، منذ سنة ١٩٧٥ على الاقل، شكل يفتقر (الى حد كبير) الى مضمون.

غير ان السؤال يبقى قائما: هل يختلف هذا الوضع عما سبقه قبل اندلاع الحرب لقد دهش كثيرون لمقدرة اللبنانيين على التأقلم مع اوضاعهم الصعبة ماليا واقتصاديا، وسكنيا ومعيشيا. ولكن هذه السهولة ليست بالامر المستحدث. انها مبنية تاريخيا على صورة اللبنانيين عن دولتهم وعلى تعاملهم معها قبل سنة ١٩٧٥ بكثير.

فقد عاش اللبنانيون، اجمالا، خارج الدولة معظم اعوام استقلالهم. اموالهم كانت تأتي من الخارج، ثقافتهم كانت خارجية تياراتهم السياسية وصحافتهم غالبا ما كان الخارج ينشئها ويمولها. اما الاقتصاد المسمى «وطنيا» فكان باستمرار اسير القطاع الخاص فلا تجد الدولة لها الا بالصعوبة القصوى تيارا شعبيا يؤيد انخراطها في اللعبة الاقتصادية والمالية. بل كان من السهل القضاء على التجربة الوحيدة التي كرست نفسها لاعطاء شكل الدولة مضمونا امنيا واقتصاديا واجتماعيا، واعني بها التجربة التي اطلقها الرئيس فؤاد شهاب (١٩٥٨ - ١٩٦٤) والتي تلاشت تدريجيا في النصف الثاني من عقد الستينات تحت ضربات ممثلي الفردية اللبنانية المتطرفة، فاتحة، بسقوطها، الباب واسعا امام الحرب الاهلية الدموية.

لم تسقط الدولة اللبنانية اذن سنة ١٩٧٥ بل هي على العكس استمرت كما كانت، خارجية عن المجتمع، خارجية في الدعم الاساسي البراني لها. فالتربية، كالاقتصاد، كانت «وطنية» بالاسم فحسب. كان الافراد والخارج، والافراد والعصبيات في علاقتهم بالخارج هم الدولة. فكان لهم ولامتدادهم الخارجي (او على الاصح: لهم بصفتهم امتدادا للخارج) السلطة والمصارف والمدارس والجماعات، والاحزاب والميليشيات.

فالدولة بحاجة لثقافة سياسية مؤاتية تعتبرها اطارا قانونيا شرعيا. حاولت الدولة اللبنانية طبعا، ككل الدول الناشئة، ان تؤثر على التنشئة السياسية بهدف بناء تلك الثقافة على مضامين كالوحدة الوطنية والعيش المشترك بين الاديان والطوائف واعتبار لبنان وطنا نهائيا. لكن الحرب التي بدأت سنة ١٩٧٥ فضحت ايضا هشاشة «القومية اللبنانية»، اي تلك القومية التي من المفترض ان تنشأ ضمن الدولة الحديثة، دفاعا عن الحدود الجديدة والمؤسسات العصرية بعد قيام الدولة.

عندما تصادمت الهويات بصورة مفجعة. وقامت الطوائف مجددا كاطار مرجعي شبه وحيد. ودُفع اللبنانيون الذين كانوا قد عودوا انفسهم على الفكرة اللبنانية الى اعتناق متجدد وقسري لمارونيتهم أم لتشيعهم. وتآلفت الطوائف احيانا بصورة كافية لكي يمكن اعتبار لبنان منقسما الى جزئين مسيحي من جانب، مسلم من الجانب الآخر. فاحتار الفرد مجددا: هل انا شيعي ام مسلم؟ هل انا ماروني او مسيحي؟ وما هو الاهم: ديني أم طائفتي؟ وفي المجال السياسي بقي الانتماء الى قومية ما امرا صعب التحديد: هل طائفتي هي امتي ام ان امتي هي لبنان ام سوريا الكبرى ام انها الامة العربية ام انها امة المسلمين التي اشتد ساعدها مع ضمور الفكرة القومية؟

من انا؟ يتساءل اللبناني ويجيبه الصدى بقلم جان ـ بول سارتر: «انا انسان آخر».

□

عندما ينظر العربي الى مأساة لبنان، تراه يعبّر عن مؤاساة خارجية، وكأن الازمة لا تمسّه في الداخل. لا التطاحن مسّه ولا الغزو الواسع ولا العمليات ضد المحتل. العربي ازاء لبنان مشفق على بعض رياء. والرياء مصدره رفض عميق لفكرة مقلقة: ان ما يحصل في لبنان يعذبه اكثر مما هو قادر على التحمل. لا لان لبنان عربي فحسب، بل لانه مختبر حقيقي لما قد يحل له ايضا. فلبنان مكسر الايديولوجيات الراهنة، وغرفة سوداء تظهر فيها صور المستقبل العربي. وليست هذه الصور بزاهية.

المسألة ان العربي يتخبط هو الآخر في خضم ازمة الهوية نفسها والتي تدك اسس الدولة القائمة. فهو ايضا ممزق بين انتماء الى طائفة وقبيلة، والى وطن، والى امة وهو لا يدري كيف يوزع ولاءه، واين يستثمر مشاعره وعواطفه، وكيف يؤالف بين ميوله ومصالحه، وتطلعاته وذكرياته. اين يضع الاسلام من العروبة، والتشيع من الاسلام، والاسرة من الدولة، والدولة من الاقليم، والدين من الدولة، والدولة من القبيلة. فيتجاوز في ذاكرته ابوه وجده ورب اسرته، وشيخه الديني ونائب منطقته. ويجالس مصطفى كامل في ذهنه عبد الناصر. ويتجاور محمد عبده مع شبلي الشمّيل. فان اختارهم جميعا اولياء له، غلب عليه التشوش الحاصل من تنافرهم جميعا. وان اختار احدهم دون غيره، وجد نفسه وقد ناصب جاره العداء او اقله الفتور والتباعد لأن جاره اختار وليا آخر وولاء آخر.

في هذه اللجج من الانفصام الداخلي، يعز وجود الولاء الواضح. والحال ان هناك ولاءات تقسّم وتنفر واخرى تجمع وتوحّد. وليس العرب بغرباء عن المجتمع الدولي المعاصر. العصبيات كثيرة، والاديان عديدة، والدول متزايدة. وهناك ولاءان يجمعان، ولا ينبغي التفريط بأي منهما، ولا يمكن لنا بعد اليوم ان نراهما متناقضين: الوطنية والقومية. الانتماء لوطن، لارض، لمساحة من الكرة تلك هي الوطنية، وطنية الطهطاوي، وزغلول، وطنية محمد الخامس وجبهة التحرير الجزائرية، وطنية ثورة العشرين من جانب وثورة ١٩٢٦ من جانب آخر. لا خلاص للبنانيين من محنتهم المدمية خارج الانتماء الوطني. الارض ارضهم، والحدود سياج حريتهم، من سهول القموعة العكارية لسهل البقاع فالجرد على تنوع طوائفه فالهضاب الجنوبية. ثقافة سياسية لا علاقة لها عمودية بالتراب، لا جذور لها، ولا نمو ولا مستقبل. وعلى العصبويين، والقوميين، والاسلاميين، والماركسيين جميعا ان يفقهوا ان لا استقرار ولا شرعية خارج ثقافة الدفاع عن الارض. وعليهم بالتالي تبني من يقوم به ويقدم عليه. وعليهم احتضان الوطنيات العربية جميعا باعتبارها عنصرا ايجابيا، لا تبنى الدول بدونه

بقلم: غسان سلامه

استاذ العلوم السياسية في الجامعة الامركية في بيروت.

ما يحصل في لبنان
يعذّب العربي
أكثر من قدرته على التحمل.
لا لأن لبنان عربي فحسب
بل لانه مختبر حقيقي
لما قد يحصل للعرب جميعا

فالوطنية اللبنانية، كالوطنية العراقية او السودانية او الجزائرية، ان وجدت، هي ضمانة الوحدة الداخلية وهي ركيزة الاستقلال.

والانتماء الثاني هو لجماعة، لقوم يرتبطون بالقرب والقربى، باللغة والثقافة، بالحال المشتركة من التبعية والهزال. أخطأ القوميون حين رأوا في المشاعر الوطنية انعزالا وتقوقعا. واخطأ الوطنيون حين نظروا للعواطف القومية نظرة تذبذب في الهوية وعمالة للخارج.

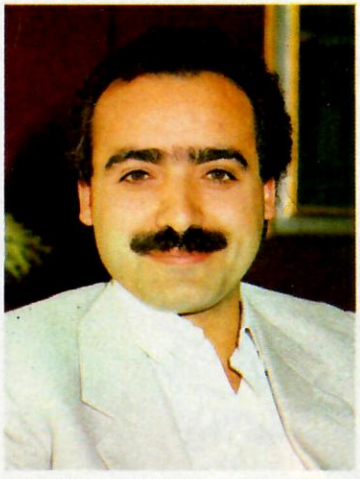

الدفاع عن الارض، الانتماء للجماعة: فلنكف عن البحث عن الخصوصيات المبتذلة. اننا، كغيرنا من ابناء الدنيا، محكومون بالجغرافيا وبالتاريخ، وكلاهما منتج دائم للمشاعر والايديولوجيات. فلنقبل بهما بحيث نخرج مصرّين من «القبائل والعصائب». فتتوحد بعض الشيء «اراؤنا والاهواء» ونتغلّب، بشق النفس، على تلك المقولة الخلدونية المتشائمة. ◇